

الفصل الخامس عشر

العباسيون

١٣٢ — ١٥٨ هـ ٧٤٩ — ٧٧٥ م

السفاح والمنصور

حكم السفاح — وفاته — استخلاف المنصور — صفاته — فتنة
عبد الله بن علي — مقتل أبي مسلم — تشييد مدينة بغداد — عهد
ولإبراهيم ابنا الحسن — انهزامها ومقتلها — غزو أسبانيا — فشل
الحملة — ثورة الحزر — إغارة جيش الروم — وفاة المنصور

لقد تغيرت بقيام الدولة العباسية معالم آسيا الغربية ، وتحول مركز الحكم من الشام إلى العراق ، وأوضاع الشاميون النفوذ والسلطان اللذين كانوا وقفاً عليهم إلى ذلك الحين ، وتبدل مجرى التقدم والرقى من الغرب إلى الشرق ، ولكن وحدة الدولة الخلافية بالرغم من كل ذلك تقوضت دعاءها إلى الأبد ، إذ أسرعت أسبانيا التي لم تكن تعترف بسلطان العباسيين منذ تأسيسها إلى تقديم طاعتها إلى «عبد الرحمن» الأموي الذي أسس دولة ضارعت الدولة العباسية قوة وبهاء . ومع أن أفريقيا الهويينية كانت خاضعة للنفوذ العباسيين في أوائل عهدها إلا أنها أصبحت بمضي الزمن إمارة شبه مستقلة . ولا تعدو الواقع إلى قلته إنه يجمع عن تقلص حجم الإمبراطورية وانكشاف أطرافها مزاياء عديدة أعانت مؤيدي الدولة العباسية على تدعيم سلطانهم والنهوض بالشعب مادياً ومعنوياً .

وكان تسعة الخلفاء الأولون . عدا خليفة واحد ، مشهورين بالحنكة السياسية والكفاية الإدارية والتفاني في توفير أسباب السعادة والرفاهية للشعب . كذلك كانوا جميعاً يجمعون إلى الصفات الخثرية مؤهلات عقلية متميزة . ومع

أن حكم بعض الخلفاء كان يتسم بميسم الشدة والاستبداد ، إلا أن ذلك كان من خصائص العصر في جميع أنحاء العالم ونتيجة من نتائج السياسة المرسومة للدولة . ويقول مؤرخ فرنسي مشهور : « إن حكم العباسيين الأوائل كان أعظم عهود العرب شأنًا وأهمها قدرًا في الشرق ، حيث كان عصر الفزوة قد عفا أثره وبدأت أشعة المدنية تنبثق في أجواء الإمبراطورية الإسلامية » .

أشرنا فيما سبق كيف بويع « أبو العباس » بالخلافة وكيف انقب بالسفاح لتسكيله بأعدائه وبطشه بكل من اشتبه في ولائه ، وخاصة أن حياة الإنسان لم تكن لها في ذلك العصر أية قيمة تذكر سواء في الغرب أو في الشرق . كذلك لم يكن للدين سلطان كبير على كبح جماح النزوات النفسية . ومع كل ما يقال عن قسوة « السفاح » فقد كان حاكماً كريماً الخلق ملماً بدقائق منصبه ، بعيداً عن الانغماس في اللذات ، ولم يكن له غير زوج واحدة اسمها « أم سلمى » ملكت عليه لبه فأصبح نفوذها عليه لا يقاوم ، وعلى هذا لم يتزوج من غيرها بالرغم من عادة التسري وتعدد الزوجات التي كانت متفشية بكثرة في تلك الأثناء ، ويقال إنها (أي زوجته) بالرغم من فتنتها ونفوذها عليه كانت تعجز بعض الأحيان عن تهدئة ثورته النفسية وسخطه البالغ حد الإفراط على الأمويين .

ولا ريب أن تلك المعاملة السيئة التي عومل بها الأمويون أثارت عطف الناس عليهم وخرج أعوانهم على « السفاح » في دمشق وحمص وقنسرين وفلسطين والعراق . وقد جرت العادة عند إضرام نار الثورة أن يخلق الرجال لحام ويعلنوا عصيانهم ، بيد أن العباسيين راعوا في قمع تلك الفتنة طرقاتاً سياسية لم تكن معروفة من قبل ، فآلئ الثوار سلاحهم بعد أن نالوا شروطاً حسنة .

وفي تلك الأثناء كان « يزيد بن هبيرة » أمير العراق من قبل الحكومة الأموية لا يزال قابضاً على « واسط » ، غير أن « حسناً بن قطيبة » وأبا جعفر أخا السفاح وولى عهده ضيقاً عليه الحصار طيلة أحد عشر شهراً استعملوا في خلالها

أبو العباس
عبد الله السفاح
١٣٦-١٣٧ هـ
٧٤٩-٧٥٠ هـ

الفتن في الشام
والعراق

يزيد بن هبيرة

أروع ضروب السفك والتفكيك ، بحيث كأننا يرسلان السفن المتهبة في النهر لكي يضرما النار في المدينة . وتقول لنا الرواية : إن يزيد بن هبيرة عند ما أيقن أن الدولة الأموية قد تقوضت دعائمها وتداغت أركانها كتب إلى « عبد الله بن الحسن » أحد أحفاد الإمام على يرغبه في الدعوة لنفسه ويحرضه على جمع خصوم العباسيين حوله . غير أن رسوله لم يعد إليه في الوقت المضروب ، ولما ينس من المقاومة ولا سيما أن اليمانيين في واسط كانوا قد انجازوا إلى السفاح ، عرض طاعته في الحال على أبي جعفر مشروطاً بالأمان لنفسه وأتباعه وأمواله . ومما يجب أن نشير إليه بهذا الصدد أن أبا جعفر كان معتزماً الوفاء له بالعهد ، غير أن السفاح كان خاضعاً لنفوذ أبي مسلم الذي كان يوجس خيفة من ابن هبيرة نظراً لما كان يتمتع به من كثرة الأتباع وواسع النفوذ بين عشيرته ، ولهذا نصح للسفاح أن يوعز بقتله ، فكتب هذا إلى أخيه يحرضه على تنفيذ الطلب ، بيد أن أبا جعفر أبي ذلك في مبدأ الأمر ، ولكنه لم يلبث إزاء إلحاح أخيه وتشدد أبي مسلم أن خضع لهما وأرسل من فتك به وبأ كبر أبنائه وبعض أصحابه ، وبهذا اشتد بأس السفاح وأصبح سيد آسيا ومصر دون منازع ، كما قدمت إليه أفريقية الغربية طاعتها . وتقول لنا الرواية العربية إن الخليفة راعى في توزيع مناصب الدولة ألا يعين فيها إلا أفراد أسرته وأولئك الذين امتازوا بخدماتهم الجليلة للقضية العباسية ؛ فاستعمل أبا جعفر على العراق وأرمينيا وأذربيجان ، وولى عمه « داوود بن علي » الحجاز واليمن واليامة ، كما ولى « عبد الله بن علي » سوريا ، وسليمان بن علي البصرة وملحقاتها ، كذلك أسند إلى أبي مسلم ولاية خراسان ، وإلى « أبي عون » مصر ، وعين « خالد بن برمك » وزيراً لبنت المال ، واستوزر « أبا سلمة » صاحب الدعوة العباسية . وقد أثار النفوذ الذي كان يتمتع به « أبو سلمة » على الخليفة حسد أبي مسلم الخراساني الذي دبر في الحال مكيدة لاغتياله ، وفي ذات

ليلة بينما كان عائداً من قصر السفاح هجمت عليه جماعة من رجال أبي مسلم وفتكت به ثم غزوا قتله إلى الخوارج .

غزو الجيش
البيزنطى

وبرغم الإجراءات التى اتخذها الخليفة الجديد لبسط سلطانه لم تتولد دعائم الإمبراطورية وتنسق شؤونها فى ذلك الحين ، الأمر الذى شجع الجيوش البيزنطية على الهجوم على الحدود الإسلامية ، وراحت تتوغل فى الأصقاع الشمالية وهى تمنع فى السكان الآمنين قتلاً وسلباً ، وفى المدن تخريباً وتدميراً .

وفاة السفاح
١٣٦ هـ ٧٥٤ م

وفى سنة ١٣٦ هـ توفى « السفاح » فى الأنبار^(١) ، دون أن يمقب غير ابن اسمه « أحمد » وبنت اسمها « ربيعة » تزوجت فيما بعد من ابن عمها « محمد المهدي » . وكان السفاح قبل وفاته قد أسند ولاية العهد إلى أخيه أبى جعفر ثم لابن أخيه « عيسى » بالتعاقب . وتحدثنا الرواية أن « أباً جعفر » كان وقتئذ يقوم بفريضة الحج فى مكة ، فأخذ له عمه « عيسى بن على » البيعة طبقاً للوصية . ومع أن السفاح كان أول خلفاء البيت العباسى إلا أن « أباً جعفر » يعد فى الواقع المؤسس الحقيق لتلك الدولة ومشيد مجدها ، كما يعزى إليه تمكن الأسرة العباسية من الحكم الذى زاولته طوال هذه القرون والنفوذ الذى تمتعت به حتى بعد أن فقدت سلطتها الزمنية . ولا مرية أنه هو الذى وضع أساس العقيدة القائلة بوجوب تقديس مقام الخلافة وإعلاء شأنها ، حتى أصبحت تلك السياسة بعد مدة وجيزة مصدر قوتها وعماد نفوذها ، وقد كان فوق ذلك ملماً بطبائع الناس فعمل طوال مدة حكمه على تقوية هذا المبدأ ، كما جعل الخلافة تتخذ لنفسها

خلافة أبى جعفر
التصور
١٣٦ هـ ٧٥٤ م

(١) هى فيروز سابور بينما وبين بغداد عشر فراسخ على نهر الفرات . وقال ابن الأثير « بنيت الحيرة و نبار أيام بختنصر ، وفتحها خالد بن الوليد فى خلافة أبى بكر ، وكانت منزلاً لأبى العباس السفاح ، انتقل إليها من الحيرة سنة ١٣٤ هـ ومنها كمال الدين الأنبارى ، من أئمة الأدب واللغة والتراجم » .

ولم يعرف قط المحل الذى دُفن فيه السفاح . إذ كان العباسيون يخشون المعاملة التى عاملوا بها الأمويين ولهذا أخفوا قبورهم . وكان المستنصر أول خليفة عباسى شيد له مرقداً معروفاً .

بالتدريج مظهرًا رائعًا وكيانًا ثابتًا ساعد الخلفاء العباسيين فيما بعد على تدعيم سلطانهم ، وتأليف هيئة قوية من العلماء الذين يتفانون في شد أزرم ويخلصون لهم كل الإخلاص . وفي الواقع لم يكن حجر الزاوية لتلك السياسة البعيدة المدى غير الفكرة المقدسة اللازمة لمبدأ الإجماع . ويمكن القول أن باعتهاء المنصور عرش الخلافة بدأ عصر جديد في تاريخ الأمة العربية تألق في سمائه أنجم عدة من الخلفاء ، الذين أصبحت أسماؤهم علماء من أعلام التاريخ في آسيا ؛ ولامشاحة أن أخلاف « العباس » بذلوا قصارى جهودهم في إصلاح حالة الشعب وكسب مودته لما قاموا به من المشاريع العمرانية ، كتشييد المدن وتعبيد الطرق وشق الجداول والأنهار ، وحفر الترع والآبار ، وبناء المؤسسات العلمية ودور الإحسان وتكريم الأدباء والعلماء ، وتشجيع التجارة والحرف على أنواعها والإقلاع عن أعمال الغزو . ويقول لنا المؤرخ المشهور سويلو : « إن الخلفاء العباسيين بالكف عن الغزو شملوا على مستوى عصرهم ، إذ بدأوا يدركون مزايا المدنية وفوائد الحضارة » . والحق يقال إن خلفاء بغداد تذرعوا بجميع الوسائل التي من شأنها أن تعمل على ترقية الشعب من جميع النواحي وتنظيم الإدارة ونشر العلم وربط جميع أنحاء الإمبراطورية برباط التجارة الوثيق .

أخلاق أبي جعفر

كانت أخلاق « أبي جعفر » مزيجاً غريباً من الخير والشر ، فهو كسياسي وإداري لا يشق له غبار ، فضلاً عن أنه لم يكن ليقبل عن أشهر ملوك ذلك العصر في بعد النظر والاهتمام برفاهية الشعب ؛ وقد كان برارحياً بأولاده ، ولكنه كان من الجهة الأخرى غادراً خداعاً ، لا يتردد البتة في سفك الدماء ، وتعزى قسوته إلى حقهه البالغ حد الإفراط ، في حين كان خلفه لا يفتك بأحد إلا بعد كثير من التروى والإمعان . وعلى الجملة كان أبو جعفر سادراً في بطشه ، مستهتراً في فتكه ، وتعتبر معاملته لأولاد « على » صفحة من أسوأ صفحات التاريخ العباسي . ويقول السيوطي : « كان المنصور أول من أحدث ثغرة

الخلاف بين العباسيين والعلويين بعد أن كانا كتلة واحدة .

نورة عبد الله
ابن علي

وعند ما توفي السفاح أسرع « المنصور » إلى الكوفة ، ويقال إنه لم يكذبوا كرمى الخلافة حتى شق عمه « عبد الله بن علي » عامل الشام عصا الطاعة وادعى بالبيعة لنفسه ، فأنفذ إليه المنصور جيشاً كبيراً على رأسه أبو مسلم الخراساني ، ودارت بين الفريقين بالقرب من نصيبين موقعة طاحنة أسفرت عن هزيمة عبد الله وفراره مع أهله إلى أخيه سليمان بن علي أمير البصرة ، الذي آواهم عنده حتى عزل من منصبه ، وعندئذ وقعوا في قبضة الخليفة الذي أمر بحبسهم في قصر بالقرب من الهاشمية ^(١) ؛ بيد أن بطل موقعة « الزاب » كان مع ذلك يعد عنصراً خطراً على العرش ، فلم يسمح له بالبقاء على مقربة من العاصمة ، ولهذا شيدت لهم دار جعل أساسها على الملح وحبسوا فيها ، فلما هطلت الأمطار بغزارة تقوضت دعائمها ، وتهدمت على نزلاتها التمساء فقتلوا التوهم ، وهو مصير كانوا يستحقونه نظراً للقسوة البالغة التي عاملوا بها الأمويين ، فشرّبوا من الكأس التي سقوا بها الناس دهاقا .

وبعد موقعة نصيبين رغب أبو مسلم في العودة إلى مقر حكمه في « خراسان » حيث كان يستطيع بنفوذه أن يهدد الخليفة ويؤاب عليه الناس نظراً لكثرة أتباعه الذين كانوا يؤمنون بنبوته ، وعلى هذا كان يتمكن بكلمة واحدة أن يحطم الدولة العباسية ويسقطها من شاطئ عجزها . ويقال إنه لما وفد عليه رسول الخليفة ليحصى الفئام ثار ثائره ، وتفوه بكلمات لا يليق بمثله أن يتفوه بها ، فلم يسع الخليفة إزاء هذا التصرف إلا أن يعتصم بالصبر ، ويعقد النية على التخلص منه ؛ ولأجل أن يتمكن من تنفيذ خطته راح يتذرع بكل الوسائل ليحول دون سفره إلى مقر حكمه ومعتقل أصحابه الأمناء ، وكتب إليه كتابا يوليه فيه الشام وملحقاتها ؛ ولكن « أبا مسلم » كان من الفطنة والدهاء بحيث لم يؤخذ بتلك

(١) مدينة شيدها السفاح على مقربة الكوفة .

الحيلة ، فضى صوب خراسان على رأس الجيش الذى سحق به « عبد الله بن على » ، وما أن أدرك المنصور أن لا طاقة له بمعارضته حتى التجأ إلى سلاحه المهود ؛ ولا ننسى بهذا الصدد أن الإنسان مهما أوتى من المهارة فى استخدام أنواع الحيل ، ومهما اشتهر بتدبيرها ونصب شباكها ، فمن اليسير جدا أن يقع هو نفسه فريسة لمثل تلك الأحاييل التى افتنّ فى نصبها للآخرين . وهكذا راح المنصور يفرط له فى قطع المهود ، ويفريه بشتى الوعود لى يجعله على الشخوص إلى العاصمة فى طريقه إلى خراسان ، كذلك كان قد أمر رجال الحاشية وموظفى البلاط أن يستقبلوه استقبالا رائعا ، ويعاملوه بكل حفاوة واحترام ، جديرين بالملوك والأمراء .

مقتل أبى مسلم
الخراسانى
١٣٧ هجرية

وفى ذات يوم سبى الطالع بينما كان « أبو مسلم » فى حضرة الخليفة خرج عليه جماعة وقتكوا به بعد أن نزعوا السلاح من أتباعه . وكان « المنصور » يرى أن سلطانه طالما كان « أبو مسلم » على قيد الحياة مهدداً بالزوال ، ولكنه شعر بعد مقتل ذلك الخصم العنيد أنه أصبح الحاكم الفعلى للبلاد ، فوجه التفاته إلى اختيار موقع يشيد عليه حاضرة الخلافة . وبديهي أنه لم يكن لينتقص دمشق روعة الجاذبية التى تجذب إليها العباسيين فحسب ، بل كانت عرضة أيضاً لهجمات الأعداء . أما مدينتا البصرة والكوفة فكان أهلها معروفين بتقلب الأهواء وعدم الاستقرار ، ولهذا انصرف عن اتخاذ إحداها مركزاً للحكم ؛ وبعد أن تحرى بنفسه كثيراً من الأماكن اختار الموقع الذى لا تزال بغداد تحتله إلى اليوم لحسن ملاءمته ، ويقال إنها كانت مضيئاً لكسرى أنوشروان ملك الفرس ؛ ومع أنها كانت قد فقدت شهرتها بزوال دولة ملوكها القدماء ، إلا أن جمال موقعها استرعى انتباه المنصور فبنى فوق أطلالها مدينة^(١) الخلفاء العباسيين .

(١) قال الخطيب البغدادي : « لم يكن لبغداد فى الدنيا نظير فى جلالة قدرها ، وغنمة أمرها ، وكثرة علمائها وأعلامها ، وتميز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها ، وسعة =

بغداد اختطت بغداد ، أو مدينة المنصور ، على ضفة دجلة الغربية ؛ ولكن ولي
المهد أنشأ مدينة أخرى على ضفة النهر الشرقية وسماها باسمه « المهدية » وأنحت
تضارع المنصورية المشهورة بها . ونخامة .

كانت « بغداد » في زمن عظمتها وازدهارها — قبل إغارة جنكيزخان
الذى أعمل فيها معاول التخريب والتدمير — أعظم قاعدة ملكية عرفها التاريخ
فاختطت على شكل دائرة يحيط بها سور فخم ، وابتنى في وسطها قصر منيف الذى
ومسجد جامع ، كما شيدت خلف ساحة الاستعراض دور كبار الضباط وموظفى
الدولة ، وفتحت شوارع رحبة بعرض لا يقل عن الأربعين ذراعاً . ولما كانت
الأسواق تعتبر وقتئذ مثابة للأشرار والمشبهين ، فقد شيدت خارجها للمحافظة
على الأمن العام ، ولكن الحكومة مع ذلك سمحت بفتح بعض الحوانيت فى
المنعطفات تحت مراقبة الشرطة ؛ كما شيدت الشكنات على الضفة الشرقية من
النهر وقسمتها إلى ثلاثة أقسام : للجنود المضرية ، واليمانية ، والخراسانية .
وأنشأت فى كل جانب من جوانب المدينة عدة أبواب تعلوها الأبراج الشاحخة
التي يقوم على حراستها جنود أشداء أثناء الليل وأطراف النهار ، على أن بناء
المدينة لم يتم إلا فى سنة ١٥٠ هـ . ويقول المؤرخون : إنه وقعت فى تلك الأثناء
عدة حوادث انتهت جميعها لصالح الخليفة ، إذ أن مقتل أبى مسلم أثار سخط
أتباعه^(١) فى خراسان فشقوا عصا الطاعة ، ولكنهم منوا بشرهزيمة ، كذلك

== أطوارها ، وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها ومحالها وأسواقها وسككها
مساجدها وحماماتها ، وخاناتها ، وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وبرد ظلالها وأفيائها ،
اعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ... وأكثر ما كانت عمارة وأهلا فى أيام
الرشيد ، إذ الدنيا قارة المضاجع ، دارة المراضع ، خصيبة المواقع ، مودة الشارع .
(العرب)

(١) لما نعى قتل أبى مسلم إلى خراسان وغيرها من الجبال ، اضطربت الحرمة وهى
الطائفة التى تدعى بالمسلمية القائلة بأبى مسلم وإمامته وقد تنازعوا فى ذلك بعد وفاته ، فمنهم من
رأى أنه لم يموت حتى يظهر فيهم عدلا ورحمة ، وثمة فرقة أخرى قطعت بموته وقالت
بإمامة ابنته فاطمة وهؤلاء يدعون الفاطمية .

أضرم الرواندية الذين كانوا يعتقدون بحلول الإله في الخلفاء العباسيين نار الثورة في الهاشمية ، وكادوا يقتلون الخليفة نفسه لولا أنه قمع حركتهم بشدة وحزم جديرين بالإعجاب ، وراح يطهر المدينة من تلك العناصر الفارقة في دياجير الجهالة والخرافات ؛ ثم تفرغ إلى محاربة الجيش البيزنطى ، وبعد معركة دموية هائلة دارت رحاها بين الفريقين ، أرغم إمبراطور القسطنطينية على عقد معاهدة صلح لمدة سبع سنين ؛ وعندئذ وجه نشاطه إلى إصلاح ما أفسده المعبرون ، وقام بتعمير المدن الخربة وترميم الحصون المتهدمة ، وزار بنفسه جميع تلك المواقع ، وأرسل « بالحسن بن قطبة » على رأس جيش كبير إلى كبيدوكيا ، وأمر بإعادة تشييد ملطية^(١) والمصيصة وبعض المدن الأخرى ، كما أنشأ فيها الخاميات وابتنى الحصون في كلوديا وبعض المراكز العسكرية الأخرى صدأ لهجات الجيوش البيزنطية .

(١٣٢) —
(٨١٥٨)

إفارة الجيش
البيزنطى

(٧٤٩) —
(٧٧٥ م)

كان أهل طبرستان الجبلية الواقعة على الجنوب الغربى من بحر قزوين لا يزالون باقين على دينهم القديم ، وكان يحكمهم رؤساء من بنى جلدتهم رغم كونهم خاضعين للإمبراطورية العربية ، ولكنهم ثاروا فجأة على العرب المستوطنين وفتكوا بعدد غير قليل منهم ، وفى الحال أنفذ الخليفة إليهم جيشاً كثيفاً هزمهم ونكل برؤسائهم . وألحق طبرستان وكيلان نهائياً بالدولة العباسية . ولم يكدرتهم للخليفة هذا النصر حتى اجتاحت أهل الديلم^(٢) حدود الدولة العربية وقد كان هؤلاء يدينون بالمانوية القديمة ويتمتعون بشبه استقلال ذاتى ، فنكلت بهم الجيوش الإسلامية شرتنكيل وأراحتهم إلى بلادهم ، كما شيدت مراكز عسكرية على الحدود منعاً لوقوع مثل هذا الغزو فى المستقبل . وفى سنة ١٤٣ هـ أجرى الخليفة حركة تنقلات واسعة النطاق بين العمال والأمرأ ، كما أوجد نظاماً جديداً

ضم طبرستان
إلى الامبراطورية
العربية فى سنة
١٤٨ هـ

(١) هى مدينة من بلاد الثغور الرومية ، ومنها أبو فرج اللطى المؤرخ الحقيق والمقاب
بإبن العبرى . (العرب)

(٢) هؤلاء يسكنون الفاويز الجبلية فى شمال كيلان غربى بحر قزوين .

خاصاً باستخدام المكائين الذين كانوا يتلقفون الأخبار ويقدمونها إلى الحكومة المركزية ، وأسس دائرة خاصة للاستخبارات لا تقل شأنًا عن مثيلاتها في الحكومات المصرية ، ومع أن تلك الإدارة كانت تساعد الحكام على فرض رقابة شديدة على حركات المشبوهين واكتشاف الجمعيات السرية التي تعمل في الخفاء لقلب نظام الحكم إلا أنها كانت من الجهة الأخرى تنشر الرعب في قلوب السكان .

قد وصلنا الآن إلى صفحة من أروع صفحات هذا الخليفة المشهور فتبين لنا قسوة قلبه وتجرد طبعه من الرحمة والحنان ؛ ولكي نفهم الحادثات المتعاقبة نرى من الضروري أن نلقى نظرة عجي على المكانة السامية التي كان العلويون يحتلوها في قلوب الناس في تلك الآونة .

(١٤٤ هـ
٧٦٦ م)

كان «آل الحسن» يحبون حياة العزلة والانقطاع فلم يساهموا إلى ذلك الحين في الأمور السياسية ، كما أنهم برغم ما لا قوه من سوء المعاملة لم يحاولوا إقطاع الخروج على السلطة الحاكمة ؛ كذلك عاش أحفاد علي الثاني ابن الحسين حياة أكثر عزلة وأشد انقطاعاً ، قاصرين مهمهم على حلبة الأدب والفلسفة مترفين عن الشعب ديدن بنى عمومهم . والمعروف أن هشاماً والوايد الثاني كانا قد أنزلا بيزيد بن إبراهيم بن جندب بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وظلّا بهما حتى ينفقوا غصا الطاعة وصقطا صرعاً في ميدان القتال ، غير أن أحفاد الحسن والحسين ظلوا يند كرمين بالمدينة يعمشون من دخلهم الضئيل علاوة على ما كانوا يصيبونه من التجارة وأجور التدريس ، واسكنهم برغم رقة حالهم وخصاصتهم كانوا يحتلون مكانة سامية في الهيئة الاجتماعية ، وكان يعيش بهم في المدينة أحفاد الخلفاء الراشدين الثلاثة وأحفاد الزبير وكبار الصحابة الأولين . وكان الجميع يكونون في أفتدبهم لأحفاد «علي» أخاص الحب وأصدق الوفاء ؛ غير أن ذلك النفوذ الذي كانوا يتمتعون به وذلك الاحترام الذي كانوا يلاقونه عند مواطنهم أثاراً شكوك «المنصور» وارتياهه في ولائهم لعرش الخلافة ، كما زاد في مخاوفه انهيار حرج الدولة الأموية وسقوطها

السريع من شاقق عنزها ، نخشى أن يؤدي : التساهل وعدم الاكتراث إلى نفس المصير الذى آلت إليه الدولة الأموية . ولذا نراه يلتجئ إلى التجسس لى يقف بنفسه على ما يحاك ضده من المؤامرات ، فيوفد جواسيسه إلى العلويين لى يختلطوا بهم ويشجعوهم على الإفضاء إليهم بمكنون صدورهم ؛ ولكننا مع ذلك نستطيع أن نؤكد أن تلك الشكوك لم تكن وحدها الباعث على اضطهادهم ، إذ ثمة حادثة أخرى وقعت قبيل تأسيس الدولة العباسية كان لها أبلغ الأثر فى تلك المعاملة السيئة التى عاملهم بها ، وهى أن آل البيت لما رأوا أن الخلافة الأموية تتردى سراعاً فى دركات التدهور والانحلال عقدوا اجتماعاً خطيراً فى المدينة للبحث فى مصير الإمبراطورية العربية ، وكان من جملة الحاضرين « المنصور »^(١) نفسه ومعظم رجال البيت الهاشمى ، وقد أجمع هؤلاء جميعاً على مبايعة « محمد »^(٢) حفيد الحسن برغم وجود أبيه على قيد الحياة ، واقتب بذى النفس الزكية ، وقد سمي كذلك لسوء فكره وزهده ونسكه ، ويمرئى إجماعهم على مبايعة إلى كفايته الممتازة ومقدرته المنقطعة النفاير . ولا تندى أن « المنصور » كان قد عاهد « محمداً » فى ذلك الاجتماع على الطاعة والولاء .

ولكن عند ما آل الحكم إلى العباسيين واعتلى المنصور كرسى الخلافة عاودته ذكرى ذلك الاجتماع الرهيب الذى أخذ ينغص عليه أسعد أيام حياته ، كذلك كان الجواسيس قد سمعوا أفكاره بالوشايات والافتراءات التى كانوا يلصقونها كذبا وبهتاناً بأبناء الحسن ، فحاول أن يلقى القبض على محمد وأخيه إبراهيم ، ولكنهما لاذا بالفرار ، فلم يلبث طويلاً حتى قبض على كبار أفراد الأسرة ومنهم عبد الله ، ورئيس أسرة الخليفة عثمان الملقب بمحمد العثماني^(٣)

(١) لم يكن الإمام جعفر الصادق من جملة من حضروا هذا الاجتماع .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن الأول بن على .

(٣) هو محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان .

وأرسلهم جميعاً مصفدين بالأغلال إلى الكوفة حيث اعتقلهم في قصر ابن هبيرة . ولما كان محمد العثماني محبوباً ومحترماً من جميع أهل الشام فقد اعتبره الخليفة خطراً على العرش فأمر بجلده وقتله . أما الآخرون فقد عوملوا بكل قسوة وصرامة حتى صرحوا أنهم كانوا في عهد الأمويين أحسن حالاً وأرغد عيشاً ، وقد راح الخليفة يبتث العيون والأرصاء لكي يقف على نجباً محمد وإبراهيم ، واستخدم الأعراب للبحث عنهما في كل مكان حتى في القرى الحقلية والواحات النائية ، كذلك كان يعاقب كل من يشتبه بأنه يساعدتهما بالجلد أو الحس ؛ ولما ينس « محمد » من الخلاص أرسل أخاه إبراهيم إلى الأهواز والبصرة لكي يدعو الناس إلى مبايعته بعد أن اتفق الاثنان على الهجوم على البصرة والمدينة في يوم واحد ، ولو أنهما نفذاً مشروعهما في وقت واحد لتمكنا على الأرجح من تقويض دعائم الحكم العباسي .

ولكن « محمدآ » بظهوره قبيل تمام عدة أخيه مكن « المنصور » من توجيه الحملات العسكرية عليهما بالتتابع . وتقول لنا الرواية إن « محمدآ » كاد في بادئ الأمر يكتسح أمامه جيش الخليفة ، كما قبض على عامل المدينة وزجه في السجن ، ونشر سلطانه في الحجاز واليمن خلال بضعة أيام ، وبايعه جميع أهل تلك الأمصار ؛ وأفتى الإمام أبو حنيفة والإمام مالك مؤسسا المذهبين الفقهيين المشهورين بصحة دعوته للخلافة . ولما ألقى المنصور أن الحركة أشد خطراً مما كان يتوقع التجأ إلى خديعته المعروفة ، وبعث بكتاب إلى « ذي النفس الزكية » ٧٤٩-٧٧٥ م بعده بالأمان على نفسه وولده وإخوته ومن بايعه وتابعه ، وبإزالة حيث شاء من البلاد ومنحه مبلغاً كبيراً من المال ؛ فكتب إليه « محمد » يعده أن دخل هو في بيعته أن يؤمنه ويصفح عنه ثم ختم رسالته بقوله : « أي الأمانات عرضت على ، أأمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله بن علي ؟ أم أمان أبي مسلم الخراساني ؟ » فكتب إليه أبو جعفر كتاباً استعمل فيه كثيراً من المهارة مبيناً له

المبادئ التي تأسست عليها الدولة العباسية متجاهلاً بالطبع أنه بايعه في المدينة ثم أخذ يشرح له أن النبي لم يعقب ذكراً ، وأن قرابة العلويين ليست إلا من البنت التي لا تحوز الميراث ، ولا تورث الإمامة ، وأن رسول الله (ص) توفي وليس من عموته أحد حتى غير « العباس » فكان هو وارثه دون غيره . وما كاد يبعث بهذا الكتاب حتى أرسل إليه عيسى ابن أخيه على رأس جيش كبير لسحق حركته . وقبل نشوب المعركة خير محمد أتباعه بين تركه وبين الاشتراك معه في القتال ؛ فخاف كثير منهم وتفرقوا عدا ٣٠٠ رجل منهم أصروا على البقاء معه لمواجهة جيش المنصور الجرار . فتقابلت الفئتان وأخذتا تتقاتلان حتى سقط محمد صريحا ، وفنيت جميع جنوده فدفنوا في مقبرة الشهداء بالقرب من المدينة . أما إجراءات إبراهيم في البصرة فكانت قد تعطلت ، نظراً لنشوب ثورة أخيه قبيل الوقت المضروب . ولكنه برغم ذلك استطاع أن يحشد قوة كبيرة حارب بها جيش المنصور وانتصر عليه في عدة معارك انتصاراً جعل موقف العباسيين محفوفاً بالخطر ، فصمم الخليفة على الفرار من الكوفة لولا أنه أوفد في آخر لحظة عيسى على رأس جيش آخر لمقاتلة إبراهيم ، فسار حتى إذا وصل إلى موقع على ضفة الفرات اقتتل الطرفان قتالاً شديداً أسفر عن انكسار جيش الخليفة شر انكسار ؛ ولكن إبراهيم بدلاً من أن يتعقبهم ويمعن في فلولهم قتلاً أمر بتوقيف ملاحقتهم ، وبهذا خسر قضيته في ساعة النصر . أما العباسيون فقد اتهموا في الحال تلك الفرصة وكروا راجعين إلى مواقعهم حيث انضاف إليهم كثير من رجالهم الذين كانوا قد سقطوا على الأرض ، وأعقب هذا الحشد معركة دموية رائعة أصيب فيها إبراهيم بسهم جنسده قتيلاً ، فتمزق أتباعه شر ممزق^(١) . وما أن حاز « المنصور » هذا النصر حتى شهر سيف الإرهاب والتنكيل على أعدائه ، فأمر بقتل كثير من أشرف البصرة الذين كانوا قد آزرروا دعوة العلويين

مقتل محمد
١٥ رمضان
٧٦٢هـ ١٤٥م

١٣٢-١٥٨هـ
مقتل إبراهيم
في ٢٤ ذوالقعدة
(١٤٥هـ)

(١) وصف ابن خلدون هذا الحادث بتوسع (س ٤ ج ٤) .

وهدم بيوتهم وخرّب بساتينهم كما صادر أملاك أبناء الحسن والحسين ؛ وألغى الامتيازات التي كان أهل المدينة يتمتعون بها ؛ وأوقف الإعانات التي كانت تردّهم من مصر ، وهدّد الإمام « جعفرا الصادق » بأنّ قتل لمطالبتة برد أملاكه ، كما حبس الإمام أبا حنيفة ؛ وجلّد الإمام مالك من غير ما شفقة ولا رحمة ؛ وأمر بقتل بعض المسجونين في قصر ابن هبيرة ، بينما تسمّ البعض الآخر بسبب تعفن غرف السجن . ولما قتل الخليفة « إبراهيم » أرسل رأسه إلى أبيه الشيخ في سجنه ليزيده لوعة وحرقة . ويقال إنّ الأب المتفجع التفت إلى الرسول قائلاً : « قل لصاحبك : قد مضى من يومنا أيام والموتى القيامة » . ويقول الرسول : ما رأيت المنصور قط أشدّ انكساراً منه في الوقت الذي بلغته فيه هذه الرسالة . وفي تلك الأثناء عظم نفوذ « المنصور » وانتشر سلطانه في جميع أنحاء آسيا الغربية وأفريقية ؛ ومع أنّ الأندلس لم تكن تعترف بحكمه الزماني ، إلا أنّ الخطبة كانت تقرأ هناك باسمه بصفة كونه حامى حمى الحرمين . وفي سنة ١٤٦ هـ ولى الخليفة ابنه جعفراً مدينة الموصل وعين له مساعداً اسمه « حرب بن عبدالله » وهو جندي باسل ، والمأثور عنه أنه شيد قصراً^(١) فخماً بضاحية المدينة أعده لسكن جعفر الذي رزق فيه بابنته « زبيدة »^(٢) .

وفي ذلك الحين حاول عامل أفريقيا^(٣) غزو الأندلس ففشلت حملته فشلا مريعاً ، وأنزل بها عبد الرحمن هزيمة شديدة ، ثم بعث برأس القائد العباسي إلى مكة حيث أقيمت سرا أمام الخليفة « المنصور » الذي اتفق وجوده فيها وقتئذ

(١) كان هذا القصر لا يزال قائماً عند ما وضع ابن الأثير كتابه (الكامل) المشهور ، ويقول في هذا الصدد إنه كانت له ضيعة على مقربة من قصر حرب بن عبدالله أوقفها على الرباط للصوفيين ، وكان له منزل جميل في تلك الضيعة كان يسكنه في أثناء وضعه كتابه المشهور .

(٢) هي زوجة هرون الرشيد واسمها الحقيقي أمة العزيز ، وقد سماها جدها المنصور زبيدة مصغر الزبيدة .

(٣) ابن مغيث اليحصبي . (المغرب)

فارتاع وحمد الله الذي جعل بينه وبين صقر قریش بحراً واسعاً .

غارة الخزر

ولم يمض طويل وقت حتى شق أهل الخزر في كورجيا عصا الطاعة فقمعت الحكومة حركتهم وأدبت زعماءهم ، كما اتخذت إجراءات شديدة لمنع وقوع مثل تلك الحوادث في المستقبل ؛ وكاد الأكراد يخرجون على الحكومة لولا أن الخليفة عين وزيره خالد بن برمك عاملاً على الجزيرة ، فاستطاع بصلابته وحزمه أن يقمع الحركة وينشر الأمن في تلك الأصقاع ؛ وما إن هدأت الأحوال واستقرت الأمور حتى فكر المنصور في حمل « عيسى » ابن أخيه على التنازل عن ولاية المهد ، واستخدم لذلك ضروب الحيل حتى رضخ « عيسى » أخيراً وتنازل عن ولاية المهد ، وفي الحال أسندها الخليفة إلى ابنه ولقبه « بالمهدى » .

وفي سنة ١٤٨ هـ توفي الإمام « جعفر الصادق » بالمدينة غير أن الحلقة العلمية ، لحسن الطالع ، لم تتوقف بوفاة ، إذ طفقت تزدهر برئاسة ابنه وخلفه « موسى » الملقب « بالكاظم » ، ومن ذلك الحين بدأ الانقسام بين الشيعة حول منصب الإمامة إذ كان الإمام « جعفر » قد أوصى لابنه الأكبر « إسماعيل » الذي توفي في حياة أبيه ؛ فأوصى جعفر ثانية لابنه « موسى » ، غير أن بعض الشيعة رفضوا الاعتراف به وقالوا بإمامة « حبيب بن إسماعيل » ، وكان ذلك الخلاف بدء ظهور الطائفة الإسماعيلية التي أسست الدولة الفاطمية في مصر .

مباينة محمد
المهدى بولاية
المهد
١٣٢-١٥٨ هـ

وفاة الإمام جعفر
الصادق
١٤٨ هـ- ٧٦ م

موسى الكاظم

وفي سنة ١٥١ هـ شق « ستاديس » أحد زعماء خراسان المشهورين عصا الطاعة والولاء ، ولكن لم يمض سوى قليل حتى قمت ثورته ، وأرسل مخفوراً مع أهله إلى بغداد حيث عوملوا معاملة مرضية .

١٥١ هـ
الثورة في
خراسان

أصبحت أفريقيا وقتئذ مصدر قلق متواصل للخليفة ، إذ قتل عامها المسمى « غلاب » التيمى في الثورة التي أضرمها الخوارج في تونس بعد أن قضى في حكمها سنتين ، فخلفه « عمر بن حفص » ، وظل متربهاً في دست الحكم قرابة ثلاث سنوات تمتعت البلاد خلالها بنعمة الطمأنينة والعدل ؛ بيد أن الخوارج

أفريقيا

نتقضوا ثانية على الحكومة وحاصروا مدينة القيروان ، وأصاب أحدهم « عمر »
بسهم قتله على الأثر ، فلم تلبث المدينة أن سقطت في أيدي الخوارج . ولما
اتمى هذا الخبر إلى مسامع الخليفة اشتد سخطه ، وأرسل في الحال جيشاً آخر ٧٤٩-٧٧٥ م
بقيادة عامل جديد اسمه « يزيد المهلب »^(١) وهو رجل ذو حنكة إدارية عظيمة
وهمة لا تعرف الكلل ، فهزم الخوارج في عدة معارك وقتل زعيمهم ، وتمقب
فلولهم من محل إلى آخر حتى نشر الأمن في ربوع البلاد ، وظل متربماً في دست
الحكم خمسة عشر سنة حتى توفي سنة ١٧٠ هـ وخلفه ابنه داود .

وفي سنة ١٥٥ هـ ابتنى « المنصور » مدينة « الربيعة » ، كما شيد الأسوار
وحفر الخنادق حول مدينتي الكوفة والبصرة ، وأمر بإحصاء جميع السكان .
وفي تلك الأثناء أخل الإمبراطور الروماني بشروط الصلح ، وزحف على
الحدود الإسلامية ، ولكنه منى بهزيمة منكرة وضمت على أثرها معاهدة جديدة
تعهد فيها الإمبراطور بدفع الجزية .

وفي سنة ١٥٦ هـ أجرى الخليفة حركة واسعة النطاق في تعيين وتحويل العمال
والأمراء ، وكاد يعين أحد أولاد الحسن^(٢) عاملاً على المدينة ، لولا أن عاجلته
المنية على أثر الجهود التي بذلها في توطيد دعائم ملكه . وتقول لنا الرواية : « إنه
عند ما أحس بدنو أجله أرسل في طلب ولى العهد وأوصاه بالنصائح التالية :

١٣٢-١٥٨ هـ « إياك وتأخير عمل اليوم إلى الغد ، وأنظر جيشك ورعييتك وأحسن إليهم ،
ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن ، واحكم بالعدل ولا تشطط ، وخذ نفسك
بالتيقظ ، وياشر الأمور بنفسك ، لا تضجر ولا تكسل ، وأوصيك بأهل بيتك
أن تظهر كرامتهم ، وتحسن إليهم وتقدمهم ، وتوطى الناس أعقابهم ، فإن عزك
عزهم ، ولا تبرم أمراً حتى تفكر فيه ، فإن فكر العاقل مرآته تزيه حسنه وسيئه

(١) هو يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، وإنما لقب المهلب نسبة إلى عمه المهلب .

(٢) زيد .

لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل ، وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة » .

وبعد أن ودع ابنه توديعاً مؤثراً ، شخص إلى مكة حيث كان ينوى قضاء بقية أيامه ، ولكنه توفي في طريقه في بئر ميمونة على بعد بضع ساعات من مكة ، فشيدوا له مائة قبر ودفنوه في واحد منها خشية أن يعرف الناس قبره الحقيقي .

وتبلغ مدة حكمه ٢٢ سنة ، وكان نحيف الجسم ، طويل القامة ، أبيض البشرة ، حسن الخلق ؛ ويقال إنه لم يأت عملاً يشينه قط ، « وكان شغله في صدر النهار الأمر والنهي ، والولايات والعزل ، وتدبير الخطط لصيانة الحدود وحماية الطرق ، وتحسين أحوال الرعية ، والنظر في الخراج والنفقات ؛ فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره . فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب النفور والأطراف والآفاق ، وشاور سماره من ذلك فيما أرب ؛ فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره ، فإذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه فأصبح وضوءه وصف محرابه حتى يطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلي بالناس ثم يجلس في إيوانه » ^(١) ؛ وكان مقتصدًا في نفقاته ، دقيقًا في حساباته ، حتى سمي بأبي الدوانق ^(٢) .

وفاة المنصور
٦ ذى الحجة
١٥٨ هـ تشرين
الأول سنة
٧٧٥ م

٧٤٩ - ٧٧٥ م

كذلك كان هذا الخليفة الدائد عن حياضه ، الذاب عن كيانه عرشه ، مثالا صالحا للرعية في إطاعة القوانين والامتثال لحكم القضاة ؛ ويقال إن قاضي المدينة أرسل في طلبه ذات مرة للتحقيق معه في قضية رفعها عليه أحد أصحاب الجلال ، فحضر بنفسه مع حاجبه ووقف كفرد عاد أمام القاضي الذي لم يخف حتى لاستقباله ؛ وعند ما جاء قرار المحكمة ضده ، أثنى على نزاهته ، ووصله بكيس من النقود ؛ ويقال إنه ترك بيت المال عامراً يكفي لسد نفقات الدولة لمدة عشر سنوات ، كما صرح بذلك لابنه المهدي .

(١) ابن الأثير .

(٢) يساوي الدرهم ستة دوانق .